العلاقة بين الكتاب المقدّس وعلم الأخلاق[1]

الإيمان بالمسيح هو إكمال علم الإنسان

تعريب مقال للبابا بندكتوس السادس عشر

في صبيحة يوم الخميس الواقع في ٢٧ نيسان ٢٠٠٦، استقبل البابا بندكتوس السادس عشر، في غرفة البابوات، أعضاء اللجنة البيبليّة في مناسبة الجمعية المنعقدة بكامل هيئتها. ننشر أدناه الخطاب الذي ألقاه قداسة البابا في هذه المناسبة:

حضرة الكاردينال،

أعزّائي أعضاء اللجنة البيبليّة البابوية،

إنّ لقائي بكم في ختام جمعيتكم السنوية المنعقدة بكامل هيئتها لهو مدعاة فرح كبير لي. إنّي أذكر كلّ فردٍ منكم بعاطفتي، بحيث تعرّفتُ شخصياً عليكم طيلة سنين رسالتي إذ كنتُ رئيساً لهذه اللجنة بعينها. أتمنّى أن أعبّر لكم عن شعور العرفان بالجميل والتقدير للعمل القيّم الذي تقومون به في خدمة الكنيسة ولخير النفوس، بالتناغم مع خليفة بطرس. أشكر حضرة الكاردينال وليم جوزف ليفادا لتوجيهه البارع ولتقديمه الموجَز للموضوع الذي شكّل مادّة للتأمل اليقظ خلال لقائكم.

لقد اجتمعتم مرّة جديدة للتعمّق بموضوع ذي أهمية كبرى: العلاقة بين الكتاب المقدّس وعلم الأخلاق. إنه موضوع لا يعني فقط المؤمن بل كلّ إنسان، وهو يعنينا بنوعٍ خاص في زمن أزمة الثقافات وأزمة الأخلاق. بالفعل، فالميل الأوليّ للإنسان يكمن في رغبته للسعادة ولحياة ناجحة كلياً. غير أنّ كثيرين في أيامنا يعتقدون أنهم يحقّقون رغبتهم هذه من خلال الاستقلالية التامّة دون الرجوع إلى الله وإلى شريعته. بعضهم ذهب إلى تنظير سيادة مطلقة للعقل وللحرية في مجال القوانين الأخلاقية، هذه القوانين تشكّل إطاراً لآداب "إنسانية" ليس إلاّ، بحيث تصبح تعبيراً عن شريعة يعطيها الإنسان لذاته بطريقة مستقلّة عن ذاته: يؤكّد أنصار "علم الأخلاق العلماني" هذا أنّ الإنسان بصفته كائناً عقلانياً، لا يمكنه فقط ، ولكن عليه أيضاً، أن يقرّر بحرية قيمة تصرّفاته.

تُبنى هذه القناعة المغلوطة على نزاع مفترَض بين الحرية وكلّ أنواع الشريعة. بالحقيقة، فلقد دوّن الخالق في كياننا حتى "الشريعة الطبيعية"، التي تعكس أفكاره الخلاّقة في قلوبنا كبوصلة وكقياس داخلي في

[1] تعريب مقال للبابا بندكتوس السادس عشر، نشرة بيبليّة ٣١ (٢٠٠٦) ٣-٥.

حياتنا. فلهذا السبب بالتدقيق يقول لنا الكتاب المقدّس والتقليد وسلطة الكنيسة أن دعوة الإنسان وتحقيقه الكامل لذاته، لا تكمن في رفضه لشريعة الله، ولكن في حياته تبعاً للشريعة الجديدة، التي ترتكز على نعمة الروح القدس: مع كلمة الله وتعليم الكنيسة تظهر هذه في "الإيمان العامل بالمحبة" (غل ٥: ٦). وبقبول المحبة التي تأتي من الله (الله محبة) تجد حرية الإنسان تعبيرها الأسمى. لا يوجد أي تناقض بين شريعة الله وحرية الإنسان: فشريعة الله المفسّرة بطريقة صحيحة لا تقلّل ولا تلغي حرية الإنسان، بل بالعكس، فهي تعطيها الضمانة والتطوّر، لأنّه، كما يذكّرنا التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية "الحرية تبلغ كمالها عندما تتوجّه شطر الله، سعادتنا" (رقم ١٧٣١). الشريعة الأخلاقية التي أقامها الله في الخلق وثبّتها في وحي العهد القديم، تجد كمالها وعظمتها في المسيح. يسوع المسيح هو طريق الكمال، الخلاصة الحية والشخصية للحرية الكاملة في الطاعة الكليّة لإرادة الله. إن الدور الأساسي للوصايا العشر لم يُلغَ بلقائه بالمسيح، ولكن وجد كماله. فالآداب التي، بإصغائها للوحي، تودّ أن تكون هي أيضاً رسمياً عقلانية، تجد كمالها في لقائها بالمسيح، الذي يعطينا العهد الجديد.

إنّ سلوك الكلمة المتجسّد هو المثال لهذا العمل الأخلاقي بحدّ ذاته، هو الذي يطابق إرادته وإرادة الله الآب في قبول رسالته وتتميمها: "طعامي أن أعمل مشيئة الآب" (يو ٤: ٣٤)؛ هو يعمل دائماً ما يحلو للآب من خلال تطبيقه كلمته (راجع يو ٨: ٢٩، ٥٥). هو يقول ويتكلّم بما أوصاه به الآب (راجع يو ١٢: ٤٩). بإظهاره الآب وطريقته في العمل يُظهر يسوع في الوقت عينه قوانين التصرّف الإنساني الصحيح. هو يُثبت هذه الصلة بطريقة بيّنة ومثالية عندما يُنهي تعليمه عن محبة الأعداء (راجع مت ٥: ٤٣-٤٧) إذ يقول :"فكونوا أنتم كاملين، كما أنّ أباكم السماوي كامل" (مت ٥: ٤٨). هذا الكمال الإلهي، الإلهي والإنساني، يُصبح ممكناً لنا إذا اتّحدنا بدقّة بالمسيح مخلّصنا.

الطريق الذي رسمه يسوع من خلال تعليمه ليس كناية عن قانون مفروض علينا من الخارج، فيسوع بذاته سلك هذا الطريق ولا يطلب منّا أي شيء إلاّ أن نقتفي خطاه. من جهة أخرى، هو لا يكتفي بأن يطلب منّا، بل يعطينا في المعمودية نعمة المشاركة في حياته الخاصة بأن يجعلنا قادرين على استقبال تعليمه ووضعه موضع التطبيق. هذا ما يظهر في وضوح نامٍ في كتابات العهد الجديد. علاقته بتلاميذه لم تكن تشتمل على تعليم خارجي، بل حياتي: فلقد دعاهم "أبنائي الصغار"(يو ١٣: ٣٣؛ ٢١: ٥)، أصدقاء (يو ١٥: ١٤-١٥)، أخوة (مت ١٢: ٥٠؛ ٢٨: ١٠؛ يو ٢: ١٧) وحثّهم ليدخلوا في اتّحاد حياتي معه ولتلقّي نيره اللطيف وحمله الخفيف بالفرح (راجع مت ١١: ٢٨-٣٠). في معرض البحث مسيحياً عن آداب، علينا إذاً أن نعي أنّ المسيح هو الكلمة المتجسّدة الذي يُشركنا في حياته الإلهية ويحملنا في نعمته على الطريق الذي يقودنا إلى تحقيق ذواتنا الصحيح. ما هو الإنسان حقاً يظهر بطريقة حاسمة في الكلمة الذي صار

بشراً؛ الإيمان بالمسيح هو إكمال علم الإنسان. لذلك فالعلاقة مع المسيح تحدّد أسمى تحقيق للعمل الأخلاقي الإنساني. هذا العمل الإنساني يتأسّس مباشرة على الطاعة لشريعة الله، على الاتحاد بالمسيح وعلى حضور الروح في نفس المؤمن. ليس هو عمل تُمليه فقط القوانين الخارجية، بل هو يتأتّى من العلاقة الحية التي توحّد المؤمنين بالمسيح وبالله.

مع التمنّي لكم بتتمّة تأمّلكم بشكل مثمر، أطلب لكم أن يحلّ نور الروح القدس عليكم وعلى عملكم، وأمنحكم جميعاً البركة الرسولية، عربون ثقتي وعاطفتي.